عطاء بن يسار ثلاثمائة الف حرف وستون الفا وثلاثة وعشرون حرفا . (بالأرقام : 023 300 ، 023 360).

2) عن ابن مسعود انه قال : وحروفها ثلاثمائة الف حرف وستمائة حرف وسبعون حرفا . (300 670)

3) عن أبي معاذ النحوي : هو ثلاثمائة الف حرف واحد وعشرون الف حرف ومائتا حرف . (200 361)

4) عن عطار بن يسار : ثلاثمائة الف وثلاث وعشرون الفا وستمائة واحدى وسبعون حرفا . (671 323)

5) حسبوا حروف القرآن فعرضوه على على مجاهد وسعيد بن جبير فلم يخطئوهم . فبلغ ما عدوه : ثلاثمائة الف حرف وثلاثة وعشرون الف حرف واحدا وسبعين حرفا . (071 323) .

6) عن ابي حمزة الزيات وابي حفص الخراز قالا : حروف القرآن ثلاثمائة الف حرف وثلاثة وسبعون الف حرف ومائتان وخمسون حرفا (250 373) .

7) عن يحيى بن الحارث الذماري قال : عدد حروف القرآن ثلاثمائة الف حرف واحد وعشرون الف حرف ومائتا حرف وخمسون حرفا (250 321)

8) عن راشد ابى محمد وكان شهد الحجاج حين ميز القرآن قال : وحروفه ثلاثمائة الف حرف وعشرون الف حرف ومائة وثمانية وثمانون حرفا (188 320) .

وهكذا نرى ان هذه الروايات الثماني لم تتفق الا فى رقم ثلاثمائة الف ، اي لم يبلغ الخلاف بينها حدود مئات الألوف ، ولكن بلغ حدود الآلاف ، بل بلغ فى بعض الروايات حدود عشرات الآلاف !!

ويذكر القرطبي فى تفسيره ثلاث روايات لجملة عدد الحروف فى القرآن الكريم لا تشترك مع اي من الروايات السابقة . والارقام التي جاءت فى روايات القرطبي هي : (180 321 ، 015 323 ، 740 340).

ومع ما ذكره الفيروزابادي فى تعليل ذلك الخلاف نود ان نضيف الى قوله ان الذين قاموا بالاحصاء فيما مضى كانوا فيما يبدو، فريقين : فريق كانوا يعدون عن طريق السمع ، اي كلما سمعوا من قارىء حرفا واتضح فى اسماعهم اضافوا شعيرة ، وفريق آخر كانوا يعدون عن طريق النظر ، اي كلما ابصروا فى المصحف حرفا مكتوبا اضافوا شعيرة . وتظهر ثمرة الخلاف بين هؤلاء وهؤلاء حين نتذكر أن بعض الحروف تسمع ولا تكتب مثل كثير من الفات المد وبعض واوات المد وياءات المد والهمزات ... الخ . وان بعض الحروف تكتب ولا تسمع كهمزة الوصل والالف بعد واو الجماعة .الخ. ومن هنا يمكن ان نتصور وقوع الخلاف فى العدد ، وان كان من المستبعد ان يصل ذلك الى عشرات الآلاف .

غير ان الخلاف فى جملة عدد الحروف لم يزعجنا بقدر ما ازعجنا وادهشنا ان يقع الخلاف بين الروايات فى عدد كل حرف على حدة . فلم تتفق روايات كتاب البصائر الا فى عدد الطاءات ، الظاءات . ولم تتفق مع روايات النسفي الا فى عدد الظاءات فقط . واما ما جاء فى الكشكول للعامري فلا يتفق فى اي حرف مع روايات الفيروزابادي او النسفي . وقد اكتفى صاحب الكشكول بذكر الارقام ولم يضبطها بالكتابة ، ولذلك جاءت نموذجا عجيبا من الاضرابات والخلط .

وحين نستعيد من الحروف تلك التي يحتمل فى بعضها ان تكتب ولا تسمع ، او التي تسمع ولا تكتب كالالفات والهمزات والواوات والياءات ، ونكتفي بمقارنة العدد لكل حرف من الحروف الاخرى التي لا يصيبها شيء من ذلك ، لا نكاد نرى مسوغا لوقوع خلاف فى عدد حروف كالراءات او الباءات مثلا !!

واذا استعرضنا مختلف الروايات حول اعداد الحروف لمسنا كيف ان القدماء من العلماء كانوا فى شبه صراع مع عدد الحروف ، يبذلون الجهد ، ويحاولون التحقيق ما وسعهم ذلك ، لان الامر يتصل بالمعجزة الكبرى للاسلام ، وبكتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ثم مع هذا لا يكادون يجمعون على رأي حاسم قاطع بصدد عدد اي حرف من القرآن الكريم الا الظاء .

وهناك صراع احصائي آخر نلحظه بين المتقدمين من اصحاب المعاجم ، فقد تبين لهم منذ عهد الخليل بن احمد ان عدد الكلمات التي يمكن عقلا او نظريا ان يتالف من حروف الهجاء الثمانية والعشرين يكاد يبلغ ، بل يجاوز حدود اثني عشر مليونا ، على اساس ان الكلمة العربية قد تكون ثنائية الاصول ، وقد تكون ثلاثية الاصول ، وقد تكون رباعية الاصول او خماسية الاصول . كما

تبين لهم أن عدد المستعمل من تلك الصور المحتملة لا يكاد يجاوز مائة الف ، والباقي مهمل لا يرد في اللسان العربي .

وظهر اثر ذلك في المعاجم الاولى للغة العربية ككتاب العين المنسوب للخليل ، والجمهرة لابن دريد ، والتهذيب للأزهري ، ففي كل من هذه المعاجم نقرأ – ولا سيما مع الجذور الثنائية والثلاثية – كلمتي المستعمل والمهمل لبيان ما ورد في اللغة وما لم يرد .

وحاول ابن جني في كتابه الخصائص (1) تفسيرا لاهمال ما اهمل من صور الجذور ، وجاءنا بما سماه الاستثقال !! فكثيرا ما يردد هذه الكلمة ، وكأنما قد تصور ان مؤتمرا قد عقد بين القاطنين باللغة العربية ، وانهم اهتدوا خلال مناقشات هذا المؤتمر الى الحكم على استثقال الكثرة الغالبة من الجذور ، فكأن الامر في تصوره كان اراديا متعمدا ، فهو يردد في احيان كثيرة قوله : ان العربي ينفر من اجتماع كذا مع كذا من الحروف !! ولما وجد أن بعض الجذور المهملة لا يتسم بالاستثقال او ما يشبه الاستثقال مثل المادة « لجع » قال عنها انها اهملت حملا على ما اهمل من تراكيب الرباعي والخماسي !!

فلنستمع الى نص كلام ابن جني في الخصائص : (اما اهمال ما اهمل مما تحتمله قسمة التركيب في بعض الاصول المتصورة او المستعملة فأكثره متروك للاستثقال ، وبقيته ملحقة به ومقفاة على اثره ، فمن ذلك ما رفض استعماله لتقارب حروفه مثل :«سص، طس ، ظث ، ثظ ، ضش ، شض » ، وهذاحديثواضح لنفور الحس عنه والمشقة على النفس لتكلفه ، وكذلك نحو « قج ، جق ، كق ، قك ، كج ، جك » . وكذلك حروف الحلق هي من الائتلاف ابعد لتقارب مخارجها عن معظم الحروف اعني الفم ، فان جمع بين اثنين منها قدم الاقوى على الاضعف نحو : « اهل ، احد ، أخ ، عهد ، عهر » . وكذلك متى تقارب الحرفان لم يجمع بينهما الا بتقديم الأقوى منهما نحو : « ارل ، وتد ، وطد » . ويدل على أن الراء اقوى من اللام ان القطع عليها اقوى من القطع على اللام ، وكأن ضعف اللام انما اتاها لما تشرب به من الغنة عند الوقوف عليها !! وكذلك لا تكاد تعتاص اللام ، وقد ترى الى كثرة اللثغة في الراء في الكلام . وكذلك الطاء والتاء هما اقوى من الدال ، وذلك لأن جرس الصوت بالتاء والطاء عند الوقوف عليهما اقوى منه واظهر عند الوقوف على الدال وانا ارى انهم انما يقدمون الأقوى من المتقاربين من قبل ان جمع المتقاربين يثقل على النفس ، فلما اعتزموا النطق بهما قدموا اقواها لأمرين : أحدهما أن رتبة الأقوى ابدا أسبق واعلى ، والآخر انهم انما يقدمون الأثقل ويؤخرون الأخف من قبل ان المتكلم في أول نطقه اقوى نفسا واظهر نشاطا فقدم أثقل الحرفين وهو على أجمل الحالين كما رفعوا المبتدأ لتقدمه فأعربوه بأثقل الحركات وهي الضمة ، وكما رفعوا الفاعل لتقدمه ونصبوا المفعول لتأخره ... الخ .) الى ان يقول ابن جني في آخر هذا الفصل : (وتخطوا بذلك الى اهمال بعض الثلاثي لا من أجل خفاء تركيبه بتقاربه نحو : « سص ، صس » لكن من قبل أنهم حذوه على الرباعي كما حذوا الرباعي على الخماسي ، الا ترى أن « لجع » لم يترك استعماله لثقله من حيث كانت اللام اخت الراء والنون ، وقد قالوا : « نجع فيه ، رجع عنه » ، واللام أخت الحرفين ، وقد اهملت في باب « اللجع » فدل على أن ذلك ليس للاستثقال) انتهى كلام ابن جني !!

وكلما مررنا بتلك الاشارات السريعة التي نصادفها في ثنايا كتب القدماء من المستعمل والمهمل من جذور اللغة ، او عن توالي الحروف وما يجتمع منها وما لا يجتمع ، احسسنا انهم كانوا في شبه صراع رهيب ومحاولة بائسة لعلهم يصلون الى نسبة صحيحة في الاحصاء او الاستقراء . فاذا روي عن الخليل أنه قال: (ليس في كلام العرب شين بعد لام ولكن قبلها ، كلها قبل اللام) ، رد عليه الأزهري قائلا : (وقد وجد في كلامهم الشين بعد اللام،قال ابن الاعرابي وغيره :رجل « لشلاش اذا كان خفيفا ») ثم يروي لنا بعض المعاجم ايضا كالقاموس المحيط للفيروزابادي أن الفعل « لشا » معناه خس بعد رفعه !!

ومن الاشارات السريعة التي جاءت في كتب القدماء بصدد نسبة شيوع الحروف في اللغة العربية قول ابن دريد في مقدمة معجمه الجمهرة (واعلم أن اكثر الحروف استعمالا عند العرب : الواو ، الياء ، الهمزة ، واقل ما يستعملون لثقلها على السنتهم : الظاء، ثم الذال ، ثم الثاء ، ثم الشين ، ثم القاف ، ثم الخاء ، ثم الغين ، ثم النون ، ثم اللام ، ثم الراء ، ثم الباء ، ثم الميم) !!

---

(1) جـ 1 ص 53 .

وأهم ما نلاحظه على اشارة ابن دريد المقضبة انها لم تتضمن الا نصف حروف الهجاء ، وان النسخ المخطوطة لهذا المعجم قد اختلفت فى شأن حرفين من الحروف المذكورة هنا ، فبعضها يذكر الدال بدلا من الذال ، ويذكر العين بدلا من الغين !!

واما الجاحظ فبرغم كثرة مؤلفاته وضخامتها لا نرى له سوى سطر واحد فى البيان والتبيين يقرر فيه أن : الياء ، اللام ، الألف ، الراء ، أكثر الحروف ترددا من غيرها ، وان الحاجة اليها اشد !! ثم يذكر لنا كيف اهتدى الى ذلك فى تعبير طريف يقول فيه : (واعتبر ذلك بان تأخذ عدة رسائل وعدة خطب من جملة خطب الناس ورسائلهم ، فانك متى حصلت جميع حروفها وعددت كل شكل على حدة علمت ان هذه الحروف الحاجة اليها اشد) !!!

وجاء فى مقدمة لسان العرب لابن منظور : (واما تقارب بعض الحروف من بعض وتباعدها فان لها سرا فى النطق يكشفه من تعناه كما انكشف لنا سره فى حل المترجمات لشدة احتياجنا الى معرفة ما يتقارب بعضه من بعض . فان من الحروف ما يتكرر ويكثر استعماله وهو : ا ، ل ، م ، ه ، و ، ى ، ن . ومنها ما يكون تكراره دون ذلك وهو : ر ، ع ، ف ، ت ، ب ، ك ، د ، س ، ق ، ح ، ج . ومنها ما يكون تكراره اقل من ذلك وهو : ظ ، غ ، ط ، ز ، ث ، خ ، ض ، ش ، ص ، ذ . ومن الحروف ما لا يخلو منه اكثر الكلمات حتى قالوا ان كل كلمة ثلاثية فصاعدا لا يكون فيها حرف أو حرفان منها فليست بعربية وهي ستة احرف : ر (1) ، ب ، م ، ن ، ل ، ف . ومنها ما لا يتركب بعضه مع بعض اذا اجتمع فى كلمة الا ان يقدم ، ولا يجتمع اذا تاخر وهو : ع ، ه ، فان العين اذا تقدمت تركبت واذا تاخرت لا تتركب ، ومنها ما لا يتركب اذا تقدم ويتركب اذا تاخر وهو : ض ، ج ، فان الصاد اذا تقدمت تركبت واذا تاخرت لا تتركب ، ومنها ما لا يتركب بعضه مع بعض لا ان تقدم ولا ان تأخر وهو : س ، ث ، ض ، ز ، ظ ، ص ، فاعلم ذلك) .

واما اشهر ما عرف عن علماء البلاغة بهذا الصدد فنراه فى اثناء حديثهم عن التعقيد اللفظي ، واكثره تفصيلا ما جاء فى عروس الأفراح للسبكي (2) ، ونقتبس هنا بعض فقراته :

(تنبيه : رتب الفصاحة متقاربة ، وان الكلمة تخف وتثقل بحسب الانتقال من حرف الى حرف لا يلائمه قربا أو بعدا) .

ثم يذكر المؤلف الحالات الست للجذر الثلاثي على أساس ان الحرف قد يكون مخرجه من الحلق كالعين مثلا ، أو مخرجه من الفم كالدل مثلا ، أو مخرجه من الشفتين كالباء مثلا . فالحروف الثلاثة ع ، د ، ب ، يمكن أن يتألف منها ست صور هي :

ع د ب ، ب د ع ، د ب ع ، ع ب د ، د ع ب ، ب ع د . ثم يتحدث المؤلف عن اكثر هذه الصور شيوعا واقلها شيوعا فيقول ما نصه : (اذا تقرر هذا فاعلم ان احسن هذه التراكيب واكثرها استعمالا ما انحدر فيه من الأعلى « يريد حرفا مخرجه الحلق » الى الأوسط « يريد حرفا مخرجه الفم » الى الادنى « يريد حرفا مخرجه الشفتان » (3) ، ثم ما انتقل فيه من الأوسط الى الادنى الى الاعلى ، ثم من الاعلى الى الادنى الى الاوسط ، وما انتقل فيه من الاوسط الى الاعلى الى الادنى فهما سيان فى الاستعمال وان كان القياس يقتضي أن يكون ارجحهما ما انتقل فيه من الاوسط الى الاعلى الى الادنى . واقل الجميع استعمالا ما انتقل فيه من الادنى الى الاعلى الى الاوسط) . انتهى كلام عروس الافراح . والمؤلف فى كل الحالات السابقة يريد بقوله الاعلى حرفا مخرجه الحلق ، وبالادنى حرفا مخرجه الشفتان ، وبالاوسط حرفا مخرجه الفم .

واخيرا وليس آخرا تلك الضوابط المشهورة التي عني بها أمثال « الجواليقي » فى كتابه « المعرب من الكلام الاعجمي » ، والشهاب الخفاجي فى كتابه « شفاء الغليل » حين يشار فى هذين الكتابين الى ما يمكن أن يعد علامات لتمييز الكلمة العربية من الكلمة الأعجمية وهي :

(1) لا تجتمع الجيم والقاف فى كلمة عربية ، الأصل ، ولذلك تعد كلمة مثل « المنجنيق » من الالفاظ الأعجمية .

---

(1) ذكرت فى المعجم على انها « دال » ومن المؤكد انه تصحيف .
(2) شروح التلخيص جـ 1 ص 94 ، 95 .
(3) لعل هنا نقصا فى النص وتكملته « أو عكسه من الادنى الى الأوسط الى الاعلى » . وهذه التكملة لكن تتمم الصور الست للثلاثي .

(2) لا تجتمع الصاد والجيم فى الكلمات العربية ، فمثل « صولجان » مما اقترضه العرب ، وكذلك كلمة « الجـــص » .

(3) لا تقع النون وبعدها راء فى اللفظ العربي ، فمثل « نرجس » كلمة أعجمية .

(4) لا تكون الزاي بعد دال فى كلمة عربية ، فمثل « مهندز » كلمة اعجمية ، وهي الكلمة التـــي تغيرت فيما بعد حتى صارت على الصورة المألوفة الآن « مهندس » .

(5) لا تجتمع الزاي أو الذال مع السين ، فكلمـــة « ساذج » معربة عن الفارسية .

(6) لا تقع الطاء مع الجيم فى كلمة عربية ، ولذلك عدت كلمة « الطاجن » أعجمية .

(7) لا تخلو الكلمة العربية حين تكون رباعية الاصل أو خماسية الاصل من حرف من حروف الذلاقة وهي : اللام ، الراء ، النون ، الميم ، الفاء ، الباء ، فيما عدا كلمة « عـسجد » بمعنى الذهب .

اما بعد : فازاء كل ما تقدم هنا من نصوص وردت فى كتب القدماء كنت الى عهد قريب اشعر بالدهشة والحيرة ، واتمنى لو اتيحت لنا فرصة لاعادة الاحصاء والاستقراء عن طريق تلك الآلات الحاسبة الحديثـــة التي اشتهرت باسم العقل الالكتروني أو«الكومبيوتر»

ثم حانت الفرصة فى العام الماضي حين دعتني جامعة الكويت لزيارة كانت برغم قصر زمنها ، مباركة فى ثمارها . فقد اتصلت بأستاذ الفيزياء المصـــري والمعار لجامعة الكويت الدكتور علي حلمي موســـى وكنت اعلم انه من امهر المتخصصين فى استخـــدام الكومبيوتر . وعقدنا معا عدة جلسات علمية شرحت فيها فكرة الاحصاءات اللغوية واهميتها فى البحـــث اللغوي ، ثم كان أن اتفقنا على البدء بدراسة احصائية لجذور اللغة كما جاءت فى معجم الصحاح للجوهري .

ووضع استاذ الفيزياء ما يسمى فى استخـدام الكومبيوتر بالبروجرام ، وشحن ذاكرة الكومبيوتـــر بنصوص المعجم ، ثم استملى ذلك الجهاز العجيـــب فاملى عليه نتائج احصائية رائعة نسقت فى عشرات من الجداول ، وبذلك تحقق ذلك العمل العلمي الرائد الذي سعدت بأن يكون لي فيه حظ التوجيه والارشاد.

وطبعت جامعة الكويت تلك النتائج الاحصائية فى كتيبين تحت عنوان « دراسة احصائية لجـــذور مفردات اللغة العربية » ، ووزعتها على كل اعضـــاء المجامع اللغوية فى العالم العربي ، وعلى اقـــام اللغات والرياضيات فى الكليات الجامعية .

وهكذا نرى أن اصحاب العلم الحديث قد قالوا كلمتهم بصدد الاحصاء اللغوي ، وبقـــي علينا نحـــن اللغويين أن نفيد من تلك الاحصاءات فى بحوثنا ، ولا اشك لحظة فى أن اللغوي الحديث سيهتدي عن طريق تلك الاحصاءات الى تفسيرات جديدة واصيلة لكثير من ظواهر لغتنا العربية ، واعمل الآن جاهدا رجـــاء الاهتداء الى بعض آثار الكومبيوتر فى البحث اللغوي.

وبالله التوفيق .

سمات ومشابه عربية في أدب الكاتب الإيطالي:

جوفاني فيرغا Giovanni Verga

للأستاذ عيسى الناعوري
- الأردن -

اذا كانت المدرسة الادبية الواقعية تعزى فى فرنسا الى هونوريه دي بلزاك واميل زولا ، ويضمون اليها غي دي موباسان وغوستاف فلوبير ، فانها فى ايطاليا تعزى الى لويجي كابوانا وجوفاني فيرغا ، ويضمون اليها غراتسيا ديليدا .

واذا كان بلزاك ، فى فرنسا ، يعتبر نقطة البداية فى الحركة الواقعية ، واميل زولا عامل تثبيتها واديبها الاكبر، فان الايطاليين يعتبرون كابوانا نقطة البداية فى المدرسة الواقعية ، او الطبيعية (Verismo - Naturalismo) وفيرغا عامل تثبيتها واديبها الاكبر، على الاخص بروايتيه الشهيرتين (اسرة مالافوليا ـ I Malavoglia) و (المعلم السيد جيزوالدو ـ (Mastro Don Gesualdo)

وعلى الرغم من ان المدرسة الواقعية الايطالية جاءت بعد اختها الفرنسية ، وكانت متاثرة بها ، الا انها تختلف عنها فى ناحية مهمة هي انها انصرفت الى معالجة الواقع المحلي الصرف : الواقع الايطالي لا الانساني العام ، كما نرى ذلك فى اشخاص روايات فيرغا التى كانت صقلية مائة بالمائة ، واشخاص روايات غراتسيا ديليدا التى كانت من واقع جزيرة سردينيا وحدها ، ومن بيئاتها الفقيرة الخاملة المتالمة .

لقد تاثرت هذه المدرسة ـ سواء فى فرنسا ام فى ايطاليا ـ بالنهضة الصناعية والعلمية فى اوروبا ، وبظهور كارل ماركس وانجلز ، وما تركت فلسفتهما الاقتصادية المادية من اثر واسع فى الحياة العادية فى اوروبا ، حتى جعلت كل شيء يفسر تفسيرا ماديا واقتصاديا وآليا .

كان جوفاني فيرغا روائي الواقعية وخلاقها المبدع ، بينما كان صديقه وزميله كابوانا ناقدها الاكبر ، وناشر فلسفتها بما يمتاز به نقده من حيوية الافكار والانطباعات ، الى جانب مشاركته فى الخلق والابداع بما الفه من اقاصيص وروايات ومسرحيات منتزعة كلها ـ او اغلبها ـ من واقع الحياة الصقلية. ولعل اشهر اعماله الادبية قصته مركيز روكافيردينا ـ (Marchese di Roccaverdina) . وبالرغم من براعة كابوانا النقدية ، واهمية آثاره الادبية ، فان فيرغا يظل اهم منه كثيرا فى زعامة المدرسة الواقعية، وابعد اثرا .

وكان يمكن اعتبار اليساندرو مانتزوني خالقا للمدرسة الواقعية قبل كابوانا وفيرغا ، على الاخص بروايته الشهيرة (الخطيبان ـ I promessi sposi) لولا أن ما نتزوني كان حريصا على الجوانب الخلقية، فيحكم على الاعمال والاشخاص فى روايته على اسس خلقية ، لا مادية واقتصادية وعلمية ، بينما تترك المدرسة الواقعية الحكم على الاعمال والاشخاص الى القاريء نفسه ، لا الى المؤلف ، كما ان هذه المدرسة كانت تحرص على عدم الكشف عن الدناءات والمساويء الانسانية علنا او التشهير بها امام القراء ، بل كانت تعطف على المحرومين من ابناء الشعب ، وتشيد

بمزاياهم الايجابية ، واستسلامهم الى الالم والبؤس، ودفاعهم عن الشرف ، وما الى ذلك . وهذه المزايا كلها نجدها مصورة اروع تصوير فى آثار فيرغا الادبية المستمدة من الحياة الصقلية الشعبية الكادحة ، المستسلمة الى المصير المحتوم .

فمن هو جوفاني فيرغا هذا ؟

ولد فيرغا فى مدينة كاتانيا ، فى صقلية ، عام 1840 ، وتوفي فى عام 1922 ، بينما ولد زميله كابوانا ـ وهو ايضا من كاتانيا ـ قبله بعام واحد ، اي عام 1839 ، وتوفي قبله بسبعة اعوام ، اي عام 1915 .

ولقد احس فيرغا منذ حداثته بميل شديد الى الآداب ، وبحاجته الى بيئة تساعده على تغذية ميله هذا . وفى عام 1865 غادر صقلية الى فلورنسا حيث وجد البيئة التى يريد . فاقام فيها مدة ، ثم انتقل منها الى ميلانو ، وهناك بدات حياته الادبية بدايتها الجدية . فاقام فى ميلانو الى ان عاد منها عودته النهائية الى مسقط راسه ـ كاتانيا ـ حيث توفي عام 1922 .

فى الفترة التى بدا فيها فيرغا حياته الادبية كانت الحركة الادبية الواقعية واسعة الانتشار فى فرنسا واوروبا ، وكانت قد ظهرت كذلك حركة ادبية جديدة فى مدينة ميلانو نفسها ، اطلق على اصحابها اسم (ذوي الشعور الشعث) وبالايطالية (Scapigliati) ـ وهي اشبه بحركة الخنافس، او الهيبيين فى يومنا هذا ـ فهي مدرسة تمردية ، قليلة الانصار ، قصيرة العمر جدا : اذ لم يزد عدد كتابها وشعرائها البارزين على الستة ، وهم : (Giuseppe Rovani) مؤسس هذه الحركة وزعيمها ، و (Iginio Tarchetti) و (Giovanni Camerana) و (Carlo Dossi) و (Emilio Praga) وهذا اشهرهم ، واخيرا (Arrigo Boito) . اما عمر هذه الحركة فلم يزد على عشر سنوات (من 1860 الى 0 187) .

لقد اراد هؤلاء الروائيون والشعراء الشبان ان يتمردوا على مثالية المدرسة الرومنسية وحساسيتها المفرطة ، ولكنهم انغمسوا كل الانغماس فى حياة فوضوية بوهيمية ، وفى الكفر بالله والانسان والوطن والفن ، وبكل المثل العليا فى الحياة ، ومضوا ينشدون النسيان في تعاطي الخمر والافيون.

وكان لذلك طبيعيا ان يموت بعضهم بالسل والاسقام، وينتحر بعضهم كذلك : فقد قضى (تاركيتي) بالسل وعمره ثمانية وعشرون عاما ، وقضى (كاميرانا) منتحرا ، ومات اشهرهم (براغا) صغير السن لم يتجاوز السادسة والثلاثين من عمره .

عند ظهور هذه المدرسة المسلولة ـ او فلنقل « المسطولة » ! ـ كان فيرغا فى حدود الثلاثين من عمره، وفى عز انتشارها كان قد وصل الى فلورنسا، ثم انتقل قبل وفاتها الى ميلانو ـ مهد هذه الحركة وقبرها ـ وفى هذه الفترة جاءت اعماله الادبية مزيجا مضطربا من اثر الواقعية الفرنسية ، والتمردية الفوضوية الميلانية ـ مدرسة ذوي الشعور الشعث ـ . وهذه الاعمال التى انتجها فيرغا هي : (خاطئة ـ Una Peccatrice) و (حكاية بلبل ـ Storia di una capinera) والنمر الملكي ـ Tigre Reale) و (ايروس Eros) و (حواء Eva) .

وعلى الرغم من ان فيرغا قد وضع هذه الروايات بعيدا عن الارض الصقلية ، وفى وسط المدن الشمالية الكبيرة الملأى بالنشاط والحياة ، الا انه كان يعيش بروحه فى ارضه الصقلية ، ومنها ظل يستمد الهامه وشخوصه وصوره . وعلى الرغم من النجاح الذى لقيته هذه الروايات ، فانها لم تبلغ السمت الفني الذى كان فيرغا يتوق الى تحقيقه . ولم يهتد الى حقيقته الفنية الا حين سلك سبيل الواقعية الادبية ، فهناك رسخت شهرة فيرغا بين عمالقة الادب الايطالي ، ولاسيما حين ظهرت روايتاه الشهيرتان (I Malavoglia) (Mastro Don Gesualdo) المستمدتان من واقع الحياة الصقلية الكادحة ، المذعنة للقدر الرهيب ، وحين اصبح شخوصه ممن يدعوهم باسم المغلوبين ـ Vinti) لان الاقدار هي التى تسيرهم بارادتها دون ان يكون لهم فيها راي ، ولا فى تبديلها يد .

ولا فى تبديلها يد؛ بدات الفترة الجديدة فى حياة فيرغا الادبية بقصة عنوانها Nedda ظهرت عام 1874 ، ثم تلاها بعدد من المجموعات القصصية الواقعية الاخرى فى كتبه التالية: (حياة الحقول ـ Vita dei campi) 1880 ، و (خبز اسود ـ Pane nero) 1882 ، و (اقاصيص قروية ـ Novelle rusticane) 1883 و (فى الطرقات ـ Per le vie) وغيرها . الا ان فيرغا بلغ الذروة فى روايتيه (اسرة ـ

مالافوليا ـ والمعلم السيد جيزوالدو) ، وقد ظهرت الاولى عام 1881 ، والثانية 1889 . ويمكن ان تضاف اليهما روايتان اخريان ، هما : (زوج ايلينا ـ (Il marito di Elena عام 1882 ؛ و (من حصتك على حصتي ـ (Dal tuo al mio عام 1906.

في هذه الروايات انصرف فيرغا قبل كل شيء الى النظر الى الانسان في عفوية احاسيسه واعماله ، والى الدنيا في الاعيب الاقدار العجيبة وتحكمها بمصائر البشر . فهو شديد العطف على الضعفاء ، والمعتوهين ، والمغلوبين على امرهم الذين يحنون رؤوسهم لمشيئة القدر المستبد ، يتفهمهم بعطف عميق حتى في اخطائهم .

ولقد اهتدى فيرغا اذن الى نفسه ، اذ عاد بروحه وقلمه من دنيا القصور الباذخة والحياة المترفة في المدينة الصاخبة ليستروح عبير ارضه الصقلية ، ويعيش مع شعبه ، ويتذوق طعم الخبز البيتي اللذيذ . لقد افلحت الواقعية في ان تجعله يعيش بسلام مع نفسه ، ويستمد فنه مما كان يعيش في اعماق نفسه من بيئته الصقلية الاولى .

صحيح أن معاصري فيرغا كانوا قد استقبلوا رواياته واعماله الادبية بشيء من البرود وقلة الاهتمام ، غير انه ما كادت تميل شمس الواقعية الى الغروب ، وتصبح شيئا من حصة التاريخ الادبي ، حتى اصبحت تلك الروايات والاقاصيص مثار الاعجاب الواسع لدى القراء والنقاد ، واخذت مكانتها الرفيعة بين روائع الآثار الادبية الكلاسيكية .

— * —

« ان فيرغا اليوم واحد من اوسع الكتاب شهرة وذيوعا في الادب الايطالي .. وعلى الرغم من تغير الظروف التاريخية لا يزال اكثر ما يكون حياة في ضمير الاجيال الجديدة التي تعتبره الكاتب الذي مجد اعظم الاخلاق الانسانية نقاء ، والممجد الاكبر لقداسة الحياة ، ولنضال الرجولة اليومي للبقاء .. واغانيه تظل ضمن نطاق الانسانية ، الا انها تسمو على انسانيتها بتحمل الالم برجولة حقة . هذه هي رسالة فيرغا الاجتماعية : فالاب نتوني هو رمز للعظمة الانسانية السامية التي تعرف كيف تؤلف بين شريعة الحياة المتالمة وشريعة الله » .

هذه الفقرة اخترتها من كتاب (تاريخ النقد الفيرغوي ـ (Storia della critica Verghiana) لصديقي الكاتب الايطالي (Giorgio Santangelo) الاستاذ في كلية الآداب في جامعة باليرمو . وكنت قد قرات هذا الكتاب النفيس قبل ان اشرع في دراسة آثار فيرغا ، لكي يساعدني على فهم هذه الآثار الادبية فهما صحيحا . والحقيقة انه افادني كثيرا بان اطلعني على آراء العديد من النقاد الايطاليين في فيرغا وادبه ، حتى لقد خيل الي انه لم يبق جانب من جوانب فيرغا الفنية الا اشبع درسا وتحليلا .

وحين عكفت على دراسة روايتي فيرغا الكبريين (اسرة مالافوليا ـ والمعلم السيد جيزوالدو) وجدت ان هناك نقطتين جديرتين بالنقاش والتحليل رغم كل ما قاله النقاد في اعمال فيرغا الادبية . وانا في هذه العجالة اقتصر على هاتين الروايتين وحدهما من بين انتاج فيرغا كله .

النقطة الاولى تتعلق بالحتمية القدرية (Fatalismo) التي يراها النقاد في آثاره ، والتي اراها انا بطولة ورجولة ، لا خنوعا لقدر محتوم لا يمكن قهره .

ويبدو لي أن هذه الحتمية التي يراها نقاد فيرغا قد اصبحت لديهم ماركة مسجلة بالنسبة الى اعماله الادبية ، ولاسيما الواقعية منها ، فهو عندهم لا يعرف الا بها .

وحين تذكر هذه الحتمية ينصرف ذهننا الى قطعان بشرية مذعنة لمصيرها المحتوم : تسير بعيون مغمضة ، ورؤوس منحنية خنوعا ، ولا تدري ـ او لعلها لا تملك ان تدري ، او تسال ـ ان كانت تساق الى المسلخ ام الى المرعى ، لان ارادتها مشلولة ، ومسيرها مخطوط منذ الازل في لوح القدر من نقطة انطلاقها حتى النهاية .

ولكن هل كان كذلك حقا ابطال فيرغا ؟ (اكرر هنا انني اتحدث عن «اسرة مالافوليا ، وجيزوالدو» بنوع خاص لئلا ازيد الموضوع اتساعا ، واطلق الجناحين اكثر مما يجب) .

فلنحاول ان نلقي نظرة سريعة على كل من هاتين الروايتين لكي نصل من ذلك الى حيث نضع اصابعنا في موضع الجراح من اولئك (الابطال) الذين يابى فيرغا الا ان يدعوهم باسم (المغلوبين ، او المهزومين ـ (Vinti :

1 ـ اسرة مالافوليا : I MALAVOGLIA

في هذه الرواية لدينا عدة ابطال ، غير ان الرئيسيين منهم ثلاثة ، هم : السيد نتوني ـ والدار ، وتدعى باسم « دار الزعرورة » Casa del nespolo والمركب ، ويدعى باسم « العناية » Provvidenza) . ـ وتتالف اسرة مالافوليا من : الشيخ نتوني ، والابن باستياناتسو . والكنة ماروتسا (Maruzza) وتدعى ايضا (La Longa) ، وكذلك من الاحفاد (نتوني ـ لوكا ـ مينا Mena ـ اليسندرو ، ويدعى ايضا مصفرا ، اليسي ـ ثم ليا) . انها اسرة من صيادي الاسماك يحاول افرادها ان يتعاونوا فيما بينهم على العيش من مهنة واحدة. وفي احدى السنين العجاف يحاول السيد نتوني ان يتغلب على الفقر والجوع بتجارة الترمس (Lupini) ولاجل ذلك يستدين من احد المرابين (واسمه كروتشيفيسو) خمسمائة ليرة . غير ان عاصفة تهب على المركب فتغرقه مع حمله من الترمس ، ويغرق معهما كذلك الابن باستياناتسو . اما المركب فينتشل ويعاد اصلاحه للعمل من جديد ، واما الدين فيظل دون تسديد رغم كل المحاولات والجهود التي يبذلها الشيخ نتوني وسائر الاسرة . واخيرا تضطر الاسرة الى التخلي عن الدار العزيزة ـ دار الزعرورة ـ ثم عن المركب ـ العناية ـ لتسديد الدين . وحين تتجرد الاسرة من الدار والمركب تأخذ المصائب في التوارد عليها : فتموت الكنة بالكوليرا، ويقضي الحفيد لوكا في معركة بحرية ، والحفيد الآخر نتوني ، بعد ان يخدم في الجندية ، يعود الى البطالة ، وينغمس في اعمال التهريب ، وبالتالي يدخل السجن ليقضي فيه خمس سنوات في القيود لطعنه ضابط الحرس في اثناء معركة ليلية بين حرس الجمارك والمهربين . وبعد ذلك تغادر الحفيدة ليا المنزل ولا يعود احد يراها . ويموت كذلك الشيخ في احد المستشفيات بعد ان اثقلته السنون والمصائب معا . والحفيدة (مينا) لا تجد زوجا بسبب المصائب المتلاحقة التي تنصب على بيت مالافوليا ، فتنصرف الى العناية باخيها الاصغر (اليسي) واسرته . واليسي هذا هو وحده الذي يتزوج جارة له تدعى (نونتسياتا ـ Nunziata) ويتمكن من استعادة الدار التي كان استردادها آخر امنية للجد قبل احتضاره . وبعدئذ يخرج الحفيد نتوني من السجن ويمضي بعيدا الى حيث لا يستطيع احد ان يعرفه .

2 ـ المعلم السيد جيزوالدو ـ MASTRO DON GESUALDO

كان جيزوالدو بناء ، وابن قروي يملك فرنا للجير (مشيدة) . ناضل نضالا عنيدا منذ طفولته ضد بؤس الفقراء وفاقتهم : « حمل الكثير من الحجارة على منكبيه .. وقضى العديد من الايام دون خبز » (ص 76) . لقد عمل اجيرا ، وبناء ، وعديدا من الحرف الاخرى ، ولكنه كان دائما مصمما على الانتصار على ظروفه الاليمة ، والتغلب على عناد الاقدار . وبفضل عمله المتواصل دون ملل او تعب استطاع ان يتغلب على الظروف العسيرة ، وان يقترن بفتاة تدعى (بيانكا تراو ـ Bianca Trau) كانت الاخيرة من اسرة نبيلة خفض الزمان جناحها . غير ان هذا الزواج ، الذي فرضته على الطرفين المصالح المادية وليس الحب المتبادل ، يصبح بداية لمصائب خطيرة ، ثم يفضي الى الدمار . والثمرة الوحيدة لهذا الزواج ، وهي الابنة ايزابيلا ، تعيش بعيدة عن ابيها الذي تخجل من اصله الوضيع ، ثم تصبح زوجة لاحد دوقات باليرمو . وتموت الزوجة (بيانكا) بالكوليرا ، ويصاب جيزوالدو نفسه بالسرطان ، فيقضي ايامه الاخيرة في قصر زوج ابنته في باليرمو ، ويموت بعد ذلك وحيدا يائسا بعد ان يرى ضياع الثروة التي جمعها بكده وعرقه المتواصلين جميعا ، والتي كانت اعز عليه من حياته. وتقول الرواية انه « هناك ، امام الثروة التي يملكها ، اقتنع بانه انتهى حقا ، وان كل امل له قد ضاع .. انه يود لو يستطيع ان يدمر بضربة واحدة كل الثروة التي جمعها شيئا فشيئا . يود لو امكن ان تذهب املاكه معه ، قانطة يائسة مثله ! » (ص 347)

في البداية تستولي اخت جيزوالدو وزوجها على املاكه وثروته ، غير ان زوج ابنته لا يلبث ان يستولي على كل شيء رغم احتجاج الشيخ جيزوالدو المحتضر الذي « كان بطنه منتفخا كالقربة ... والانياب الكلبية في داخله تنهش كبده نهشا » (338)

— * —

في هاتين الروايتين نلاحظ كيف جعل فيرغا الحتمية القدرية تسيطر من البداية الى النهاية ، او هكذا ارادها ، لان فيرغا يرى « ان الناس ـ اخيارا كانوا ام اشرارا ـ يجثم عليهم كابوس محتوم صارم ـ كما يقول باسكواله لامانا في الجزء الثالث